محمود درويش

احمد الزعتر

ليدين من حَجَرٍ وزعترٍ
هذا النشيدُ .. لاحمد المنسيِّ بين فراشتين
مضت الغيوم وشردتني
ورمت معاطفها الجبال وخبأتني

.. نازلا من نحلة الجرح القديم الى تفاصيل
البلاد وكانت السنة انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنت وحدي
ثم وحدي ..
آه يا وحدي ! واحمد
كان اغتراب البحر بين رصاصتين
مخيِّما ينمو ، وينجب زعترا ومقاتلين
وساعدا يشتد في النسيان
ذاكرة تجيء من القطارات التي تمضي
وارصفة بلا مستقبلين وياسمين
كان اكتشاف الذات في العرباتِ
أو في المشهد البحري
في ليل الزنازين الشقيقة
في العلاقات السريعة والسؤال عن الحقيقة
في كلِّ شيء كان أحمدُ يلتقي بنقيضهِ
عشرين عاماً كان يسأل
عشرين عاماً كان يرحل
عشرين عاماً لم تلده امه الا دقائق في اناء الموز
وانسحبت
يريد هوية فيصاب بالبركان
سافرت الغيوم وشردتنى
ورمت معاطفها الجبال وخبأتني

* * *

أنا أحمد العربي ـ قال
أنا الرصاص البرتقال الذكريات
وجدت نفسي قرب نفسي
فابتعدت عن الندى والمشهد البحري
تل الزعتر الخيمة
وانا البلاد وقد أتت وتقمصتني
وأنا الذهاب المستمر الى البلاد
وجدت نفسي ملء نفسي ...
راح احمدُ يلتقي بضلوعه ويدبه

كان الخطوة ـ النجمه
ومن المحيط الى الخليج ، من الخليج الى المحيط
كانوا يعدون الرماح
وأحمد العربي يصعد كي يرى حيفا
ويقفزَ

أحمد الان الرهينة
تركت شوارعها المدينه
واتت اليه لتقتله
ومن الخليج الى المحيط ، من المحيط الى الخليج
كانوا يعدون الجنازة وانتخاب المقصلة

* * *

أنا أحمد العربي ـ فليأت الحصار
جسدي هو الاسوار ـ فليأت الحصار
وأنا احاصركم
أحاصركم
وصدري باب كل الناس ـ فليأت الحصار

* * *

لم تأت اغنيتي لترسم احمد الكحلي في الخندق
الذكريات وراء ظهري ، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولد الموزع بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلي
قاوم
ان التشابه للرمال .. وانت للازرق

واعدُ أضلاعي فيهرب من يدي بردى
وتتركني ضفاف النيل مبتعدا
وأبحث عن حدود أصابعي
فأرى العواصم كلها زبدا ..

واحمد يفرك الساعات في الخندق
لم تأت أغنيتي لترسم أحمد المحروق بالازرق
هو أحمد الكوني في هذا الصفيح الضيق
المتمزق الحالم
وهو الرصاص البرتقالي .. البنفسجة الرصاصية

←

وهو اندلاع ظهيرة حاسم
في يوم حريه
يا ايها الولد المكرس للندى
قـــاوم !
يا ايها البلد ـ المسدس في دمي
قـاوم !
الان اكمل فيك أغنيتي
واذهب في حصارك
والان أكمل فيك اسئلتي
وأولد من غبارك
فاذهب الى قلبي تجد شعبي
شعوبا في انفجارك

* * *

.. سائرا بين التفاصيل اتكأت على مياه
فانكسرتُ
أكلما نهدت سفرجلة نسيت حدود قلبي
والتجأتُ الى حصار كي أحدد قامتي
يـا أحمد العربي ؟
لم يكذب عليّ الحب ، لكن كلما جاء المسـاء
امتصني جرس بعيد
والتجأت الى نزيفي كي أحدد صورتي
يا احمد العربي
لـم أغسل دمي من خبز اعدائي
ولكن كلما مرت خطاي على طريق فرت
الطرق البعيدة والقريبة
كلما آخيت عاصمة رمتني بالحقيبة
فالتجأت الى رصيف الحلم والاشعار
كـم أمشي الى حلمي فتسبقني الخناجر
آه من حلمي ومن روما !
جميل انت في المنفى
قتيل انت في روما

وحيفا من هنا بدأت
واحمد سلّم الكرمل
وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزل
لاتسرقوه من السنونو
لاتأخذوه من الندى
كتبت مراثيها العيونُ
وتركت قلبي للصدى

لاتسرقوه من الابـد
وتبعثروه على الصليب
فهو الخريطة والجسد
وهو اشتعال العندليب

لاتأخذوه من الحمام
لاترسلوه الى الوظيفه
لاترسموا دمه وسام
فهو البنفسج في قذيفه

* * *

.. صاعداً نحو التئام الحلم تتخذ التفاصيل
الرديئة شكل كمثرى
وتنفصل البلاد عن المكاتب
والخيول عن الحقائب
للحصى عرق . أقبل صمت هذا الملح
أعطي خطبة الليمون لليمون
أوقد شمعتي من جرحى المفتوح للازهار
والسمك المجفف
للحصى عرق ومرآة وللحطاب قلب يمامة
أنساك احيانا لينساني رجال الامن
يا امرأتي الجميلة تقطعين القلب والبصل
الطري وتذهبين
وللحصى رئة . وصمتك ذوّب الليل المحنط
فاذكريني قبل ان انسى يـديّ
.. وصاعدا نحو التئام الحلم
تنكمش المقاعد تحت اشجاري وظلك
يختفي المتسلقون على جراحك كالذباب الموسمي
ويختفي المتفرجون على جراحك
فأذكريني قبل ان أنسى يدي
وللفراشات اجتهادي
والصخور رسائلي في الارض
لا طروادة بيتي ولا مسادة بيتي
واصعد من جفاف الخبز والماء المصادر
من حصان ضاع في درب المطار
ومن هواء البحر أصعد
من شظايا ادمنت جسدي
واصعد من عيون القادمين الى غروب السهل
اصعد من صناديق الخضار
وقـوة الاشياء أصعد
انتمي لسمائي الاولى وللفقراء في كل الازقة
ينشدون .

صامدون
وصامدون
وصامدون

كان المخيم جسم أحمد
كانت دمشق جفون احمد
كان الحجاز ظلال أحمد
صار الحصار مرور احمد فوق أفئدة الملايين
الأسيرة
صار الحصار هجوم أحمد

والبحر طلقته الاخيره !

* * *

يا خصر كل الريح يا اسبوع سكّر
يا اسم العيون ويا رخاميّ الصدى
يا أحمد المولود من حجر وزعتر
ســنقول : لا
ســنقول : لا
جلدي عباءة كل فلاح سيأتي من حقول التبغ
كي يلغي العواصم
وتقــول : لا
جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفة
والتردد .. والملاحم
نحــو اقتحام المرحله
وتقول : لا
ويدي تحيات الزهور وقنبله
مرفوعة كالواجب اليومي ضد المرحله
وتقول : لا
يا ايها الجسد المضرج بالسفوح وبالشموس المقبلة
وتقول : لا
يــا ايها الجسد الذي يتزوج الامواج
فوق المقصله
وتقول : لا
وتقول : لا
وتقول : لا !

* * *

وتموت قرب دمي وتحيا في الطحين
ونزور صمتك حين تطلبنا يداك
وحين تشعلنا اليراعــه
مشت الخيول على العصافير الصغيرة
فابتكرنا الياســمين
ليغيب وجه الموت عن كلماتنا
فأذهب بعيدا في الغمام وفي الزراعه
لا وقت للمنفى وأغنيتي ..
سيجرفنا زحام الموت فأذهب في الزحام
لنصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين
واذهب الى دمك المهيأ لانتشارك
واذهب الى دميَ الموحّد في حصارك
لا وقت للمنفى ..
وللصور الجميلة فوق جدران الشوارع والجنائز
والتمنــي
كتبت مراثيها الطيور وشردتني
ورمت معاطفها الحقول وجمعتني
فأذهب بعيدا في دمي ! واذهب بعيدا في الطحين
لنصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين
يا احمد اليومي !
يــا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الاسماء
يــا اسم البرتقاله
يــا أحمد العادي !
كيف محوت هذا الفارق اللفظي بين الصخر والتفاح
بين البندقية والغزالة !
لا وقت للمنفى واغنيتي ..
سنذهب في الحصار
حتى نهايات العواصم
فاذهب عميقا في دمي أذهب براعــم
واذهب عميقا في دمي اذهب خواتم
واذهب عميقا في دمي اذهب سلالم
يــا أحمد العربي .. قاوم !
لا وقت للمنفى واغنيتي ..
سنذهب في الحصار
حتى رصيف الخبز والامواج
تلك مساحتي ومساحة الوطن ــ الملازم
مــوت امام الحلم
أو حلم يموت على الشعار
فأذهب عميقا في دمي واذهب عميقا في الطحين
لنصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين
.. وله انحناءات الخريف له وصايا البرتقال
له القصائد في النزيف له تجاعيد الجبال
له الهتاف له الزفاف
لــه المجلات الملونــة
المراثي المطمئنة
ملصقات الحائط
العلم التقــدم فرقة الانشاد
مرســوم الحــداد
وكل شيء كل شيء كل شيء
حين يعلن وجهه للذاهبين الى ملامح وجهه
يا أحمد المجهول !
كيف سكنتنا عشرين عاما واختفيت
وظل وجهك غامضا مثل الظهيره
يــا أحمد السري مثل النار والغابات
أشهر وجهك الشعبي فينا
واقرأ وصيتك الاخيره !
يــا ايها المتفرجون ! تناثروا في الصمت
وابتعدوا قليلا عنه كي تجدوه فيكم
حنطة ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلا عنه كي يتلو وصيته
على الموتى اذا ماتوا
وكي يرمى ملامحه على الاحياء ان عاشوا !
اخــي أحمد !
وانت العبد والمعبود والمعبد
متى تشهد .. متى تشهد .. متى تشهد !

« السفير » البيروتية
١٧ آب ١٩٧٦